أثر الترجمة في تكوين بُنية العلوم الإسلامية وتطورها

د. عبد العزيز انـميرات
أستاذ الفكر الإسلامي المعاصر والعلوم الإنسانية
كلية الآداب سايس فاس
المغرب

توطئة

من الحقائق التي لا يختلف حولها اثنان، أن بناء الحضارة الإسلامية قام - بعد انتهاء زمن النبوة المباركة- على قاعدتين متكاملتين، مكنتا أبناء هذه الحضارة من امتلاك قوة فكرية وعلمية ومعرفية، أسهمت بشكل كبير في نشر الدين الإسلامي وتعاليمه، بالشكل الذي يقتضيه مقام الشهود الحضاري والخيرية، وهما، أولا: قاعدة الاجتهاد الفكري انطلاقا من الثوابت، وثانيا: قاعدة الانفتاح على مختلف العلوم والمعارف والفهوم الإنسانية، خاصة زمن الفتوحات الإسلامية وتوسع الدولة الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية.

في هذا السياق، أسهمت الكثير من العوامل الذاتية والخارجية في تطوير مناهج النظر والبحث والاجتهاد؛ وتُعتبر ترجمة علوم الآخر المختلف وخبراته المعرفية، أحد أبرز هذه العوامل الخارجية التي مكنت العقل المسلم من تكوين البُنية النظرية التي كانت وراء بروز العديد من المدارس والتيارات الفكرية والفلسفية والكلامية، التي أحدثت مناخا مناسبا لشيوع المناظرات والنقاشات المتعاقبة في مختلف المجالات العلمية والمعرفية والفكرية، مما مكن العقل المسلم من مناقشة الكثير من القضايا والإشكالات التي طرحتها فلسفة الوجود والمعرفة والقيم ، ناهيك عن المحاور المرتبطة ببناء الدولة والتعامل مع الواقع الجديد .

على هذا الأساس النظري، تأسست هذه الورقات التي نروم- من خلالها- لا التأريخ لحدث الترجمة على أهميته، ولكن لإبراز بعض وجوه إسهام فعل الترجمة - بشكليه الفردي والمؤسساتي- في تطوير مناهج النظر والتفكر وبناء المعرفة الإسلامية، وكل ذلك في سياق تطور الدولة والمجتمع الإسلاميين، ناهيك عن حاجتهما إليه للإجابة عن الكثير من الأسئلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل وحتى العقدية.

بالبناء على هذا الضرب من الفهم النظري، نجد أنفسنا ملزمين بتأطير تفاصيل هذه الورقات بسؤال مركزي، وهو: إلى أي حد استطاعت الترجمة -في العصور الأولى للدولة الإسلامية- الإسهام في تكوين بُنية العلوم الإسلامية وتطويرها؟

وللإجابة عن هذا السؤال المهم، قسمنا الكلام عن هذا الموضوع إلى ثلاثة محاور كبرى عليها مدار البحث، ومن خلالها يمكن أن نجيب عن السؤال، وهي:

المحور الأول: في بعض عوَامل نشأة العلوم الإسلامية.

المحور الثاني: في أهمية الترجمة في سياق حضور ثقافة الآخر المختلف في المجتمع الإسلامي من داخل (حلم) الخليفة المأمون.

المحور الثالث: في بعض معالم أثر الترجمة في تطور بنية العلوم الإسلامية وتطورها.

المحور الأول: في بعض عوامل نشأة العلوم الإسلامية

تلزمنا مقاربة أثر الترجمة في تطور بُنية العلوم الإسلامية وتطويرها، كعامل مهم لا الأخرى؟ فز عليه، الحديث، بإيجاز شديد، عن تاريخية العلوم الإسلامية في الحضارة الإسلامية، وخاصة بين حقبتي ميلاد المجتمع الإسلامي وعصر التدوين؛ ذلك أن استحضار الشروط التاريخية في مجال النظر في هذه التاريخية مفيد جدا، وذلك لاعتبارين، في نظرنا، تقربنا الإجابة عن الأسئلة المترتبة بهما، من فهم العديد من الإشكالات الفكرية المرتبطة بهُوية الفكر الإسلامي، وما أنتجه من تراث ضخم عموما، وهما: هل نشأت العلوم الإسلامية وتطور الفكر الإسلامي في استقلالية عن المسار التاريخي للعلوم والمعارف التي سبقته، أو تلك التي تعرف عليها في سياق انفتاحه على الحضارات الأخرى؟. وإلى أي حد يمكن تفنيد المقولة التي تدعي تبعية الفكر الإسلامي إلى ما سبق من علوم ومعارف الآخر المختلف؟

إن الإجابة عن السؤالين معا، كفيلة بتمكيننا من استيعاب طبيعة نشأة العلوم المختلفة داخل المجتمع الإسلامي وتطورها، بل وحتى تطويرها، ناهيك عن فهم بعض مداخل امتلاكها القدرة على الانتشار داخل مجالات حضارية مغايرة. وقد لا نغالي إن قلنا في هذا السياق: إن فهم تفاصيل هذه الخطوة، سيمكننا من فهم طبيعة علاقة الفكر الإسلامي بمحورين مهمين، نعتقد- مع الكثيرين- أنهما قطب أصالته ومعاصرته في الآن نفسه، والمقصود بذلك علاقته بالنص المؤسس للنظر والتفكر والاجتهاد، بل والضابط لهذا الضرب من النظر والاجتهاد من جهة، وعلاقته – من جهة أخرى- بالواقع الذي نزل من أجله هذا النص المشَرّع.

وإننا لا نختلف مع الكثيرين إن قلنا: لقد انطلق الفكر الإسلامي، في تأسيسه للعلوم ومختلف المعارف وتطويرها ونشرها، من قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"[1]، حيث الدعوة إلى إعادة (القراءة) بالمفهوم الجديد لعالمي الغيب والشهادة معا، سواء على مستوى المفاهيم أو التصورات أو أساليب النظر أو التنزيل؛ الشيء الذي يجعلنا نؤكد على أن العلوم الإسلامية لم تنشأ من فراغ من جهة، كما أن غالبيتها إنما نشأت – من جهة أخرى-لتحقيق أهداف تتصل في مجموعها بمقاصد العبادة التي رسختها الأصول الدينية في القرآن والسنة النبوية الصحيحة. وهي بهذا تحيل العقل المسلم على ضرورة الجمع بين قراءتين متكاملتين ستُعطيان ثمارها المطلوبة، إن أحسن

[1] سورة العلق- الآية 1.

العقل المسلم استخدام الأدوات وفق هذا النوع من الفهم: قراءة الوحي وقراءة الوجود[1]، الشيء الذي يجعل من استحضار التكامل المعرفي بين مصادر المعرفة وأدوات إنتاجها، ناهيك عن فهمها أولا، أمرا في غاية الأهمية، بل وشرطا رئيسا لتحقيق التكاملية على مستوى العلاقة بين الوحي والوجود؛ ولعل الناظر في طبيعة الإنتاج المعرفي والعلمي في المجتمع الإسلامي، ناهيك عن تميزه، سيستحضر هذا الضرب من التكامل ، بل وسيعلم أن ما تم إنتاجه من علوم ومعارف واجتهادات في مختلف المجالات، إنما كان بفعل تثوير الوحي للعقل الاجتهادي عند الإنسان من جهة ، وحثه على ضرورة الاشتغال بكل ما من شأنه جعل هذا الوحي حاضرا في الحياة بكل تفاصيلها، من جهة أخرى.

وإذا كانت الأصول المعرفية لنشأة العلوم إنما تنزع " إلى حقيقة الوعي الكلي بحقيقة الوجود، فهما وفقها وتفسيرا، بما يكشف عن ارتباط مادي وفلسفي في الحياة، ويتطلب ذلك أمرين: فهم الذات وفهم الكون؛ حيث يؤدي فهم الذات عموما إلى تأسيس النظر الإنساني ومنطلقاته، الذي يستكشف به الإنسان مكوناته الأصلية، سواء ما نزع إلى الجوانب الروحية، أو ما ارتبط بالهوامش المادية فيه. في حين يؤسس فقه الكون المعارف الوجودية والإلهية القائمة على توجيه الأنظار في العلاقات الوثيقة بين التمثل الثقافي للإنسان، والمعرفة الاعتقادية في الوجود، في حين يشير تفسير ذلك الإدراك إلى إنتاج معارف علمية تخضع للتفسير الفلسفي لمحيط الإنسان وبيان حقائق الاجتماع البشري"[2].

وباستحضار هذا الضرب من الفهم، لا تخرج العلوم الإسلامية ولا تشذ" عن السياق التاريخي لعلوم باقي الزمان، من حيث أصولها في النشأة والتأسيس، وإن عرفت اتجاهات معرفية ومسارات إدراكية مغايرة، في جانب المقاصد الإنسانية والغايات الوجودية. فالمنهج القرآني يُشكل طفرة جديدة لعلوم سابقة العهد والنشوء والتطور والإنتاج، ويؤسس لانطلاقة مغايرة في مسار علوم حديثة التاريخ بالتكوين والإعمال، ستعرف تأثيرا وتأثرا معا، إما من حيث التكامل المعرفي، أو من حيث الاستعارة المنهجية، أو التقصيد الكوني"[3].

[1] يراجع في هذا الباب للاستزادة، الكتاب القيم للدكتور طه جابر العلواني: الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون.

[2] الحسان شهيد:" نشأة العلوم الإسلامية وتطورها: تأسيس علم المقاصد أنموذجا"- مجلة إسلامية المعرفة- ع65-س17-2011-ص ص: 12-13.

[3] المرجع نفسه- ص:13.

وعلى الجملة، يمكن القول: لقد نشأت العلوم في المجتمع الإسلامي بسبب توفر جملة من العوامل والأسباب، منها ما هو ذاتي صرف، ومنها ما له علاقة بالمسار العلمي والحضاري الإنساني العام؛ وقد أحدث كل ذلك بيئة خصبة أسهمت في تطوير مناهج هذه العلوم والمعارف وتطور آليات النظر والفكر والاجتهاد، يمكن تجميعها في ثلاثة عوامل رئيسة، تتخللها بطبيعة الحال جملة من العوامل الأخرى المساعدة، وهي:

أولا: مركزية الوحي (بشقيه القرآن والسنة)، والذي جاء بأربع مهمات رئيسة:

1. حث المسلمين على استعمال النظر العلمي والتدبر العقلي، ومدح التفكر والمفكرين والعلماء، إلى جانب الإيمان القلبي والتصديق الروحي بعالم الغيبيات[1].
2. تصحيح المفاهيم وترشيد آليات النظر وأخلاقيات التفكير الإنساني وتحصينها من عوامل الانزلاق.
3. تقديم مجموعة من الإجابات التي شغلت العقل البشري منذ القديم، والتي تخص جوانب الوجود والمعرفة والقيم.
4. حث العقل المسلم على تفعيل الآليات النظرية والتطبيقية لعمارة الأرض بالشكل المطلوب، ومن ضمن ذلك طلبه كل ما له علاقة بتحسين جودة حياة المسلم.

ثانيا: الواقع المعيش للمجتمع الإسلامي الجديد، حيث تعرف المسلم، في ظل الدولة الإسلامية، خاصة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، على جملة من المشاكل والتحديات التي مست كل الميادين، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية...، فكان من اللازم أن يتصدى العقل المسلم لهذه التحديات والمشكلات ويعالجها، الأمر الذي أفرز لنا أمرين مهمين، في نظرنا:

1. الاجتهاد فيما لا نص فيه، للإجابة عن الأسئلة والنوازل الجديدة، مما نشّط العقل المسلم وأشاع فيه ثقافة النظر والاجتهاد بشكل ملحوظ.
2. بروز العديد من الفرق والمذاهب، والتيارات، والآراء، والاجتهادات..، كان في تنوعها واختلافها – على خطورتها أحيانا- ما أسهم في تطوير آليات النظر والتفكير

[1] هناك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي تحث على ذلك، ومنها قوله تعالى :(أفلا يتدبرون القرءان أم على قلوب أقفالها) - سورة محمد- الآية 24- وقوله تعالى :(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الاخرة، إن الله على كل شيء قدير) - سورة العنكبوت الآية 20- وقوله تعالى: (ومن ءاياته خلق السماوات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين) سورة الروم-الآية 22.

والاجتهاد، ولعل ما شهده عصر التدوين من معارف وعلوم، ناهيك عن وفرة غير مسبوقة للمؤلفات والكتب، دليل على تطور العلوم والمعارف داخل المجتمع الإسلامي.

ثالثا: علوم الآخر المختلف وفنونه ومعارفه، حيث أسهمت في تطور العلوم، لدرجة أننا لا يمكن أن ننكر أثرها في تشكيل العقل المسلم؛ وهذا أمر يحصل -كما هو معلوم- في كل المجتمعات والحضارات، وهو دليل عافية، لا دليل ضعف، كما قد يعتقد البعض، وقد أجمل الجاحظ في كتابه (الحيوان) هذا النوع من الفهم بقوله، وهو الذي عاصر هذا الزخم من المعارف والعلوم والفنون: "وجعل الله حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا"[1].

لقد كان حضور فكر الآخر المختلف وعلومه في المجال التداولي الإسلامي، حضورا ملحوظا عكسته مجهودات الترجمة، بشكليها الفردي والمؤسساتي، بشكل كبير، والتي تعرف من خلالها الفكر الإسلامي، زمن الأمويين والعباسيين على وجه الخصوص، على تراث ضخم ومتنوع من العلوم والمعارف والفهوم والنظريات في مجالات الفلسفة والطب والتنجيم والكيمياء...؛ وما كان لهذا الضرب من النشاط أن يتقوى داخل دولة جديدة واسعة الأطراف، ويثمر ما أثمره من نتائج ملحوظة، لولا توفر عاملين متكاملين على وجه الخصوص، إلى جانب عوامل أخرى بطبيعة الحال، وهما: أولا : عامل انفتاح العقل المسلم على ثقافات الشعوب الأخرى وعلومها ومعارفها، بسبب الفتوحات الإسلامية وتوسع الدولة الإسلامية، ودخول أجناس جديدة غير عربية في المجتمع الإسلامي؛ وثانيا :عامل دعم السلطة السياسية بشكل كبير وملحوظ للترجمة، وخاصة بعد تأسيس (بيت الحكمة)، وبناء العديد من المؤسسات الراعية لهذا الفعل المهم ، ناهيك عن توفر العديد من الخدمات المصاحبة للنسخ والنشر والتدوين؛ الشيء الذي يمنحنا إمكانية التأكيد على أن للترجمة أثرا واضحا ومهما، حقق ثلاث نتائج متكاملة:

1. استيعاب علوم الآخر ومعارفه، والاستفادة من كل ما من شأنه تقوية البناء المعرفي الذاتي وإدارته.
2. تطوير آليات النظر في هذه العلوم والمعارف، تقييما وتقويما، خاصة في المجالات المرتبطة بالعقيدة والنظر الفلسفي.

[1] تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- 43/1- ط2-1965.

3. الإسهام في بناء العلوم والمعارف، وخاصة منها تلك المرتبطة بالتاريخ والنفس والمجتمع، وقد كان للمسلمين أثر كبير وملحوظ في هذا البناء والتطوير، والذي يشهد عليه- إلى جانب وفرة المؤلفات والكتب- حضور الكثير من هذا الإنتاج العلمي في المجال التداولي الأوربي.

المحور الثاني: في أهمية الترجمة في سياق حضور ثقافة الآخر المختلف في المجتمع الإسلامي من داخل (حلم) الخليفة المأمون

من الحقائق التي لا يختلف حولها اثنان، أن الترجمة نشاط إنساني موغل في تاريخ الإنسان، وقديم قدم حاجة هذا الأخير إلى التواصل مع الآخر المختلف؛ ولذلك فإن حاجة الإنسانية أفرادا وجماعات إلى هذا النوع من التواصل، وفهم الثقافات، والاستفادة من الخبرات والفهوم والتجارب والأفكار والعلوم...، يظل قائما قيام هذه الحاجة الملحة والضرورية، سواء أكان الراغب في الترجمة متقدما أو يعيش على إيقاع التخلف والركود؛ وقد شهد تاريخ الحضارات المتعاقبة النوعين معا، حيث التمست الكثير من الشعوب مداخل المعرفة والعلوم وتفاصيل الخبرات، في سياق بحث مثقفيها وعلمائها، بل وحتى ساستها، عن السبل الكفيلة بالنهوض الحضاري ، سواء في شقه المادي أو في شقه الفكري، أو هما معا، كما حدث للمجتمعات الأوربية في القرون الوسطى، أو ما حدث للمجتمع العربي زمن ما يطلق عليه عصر النهضة ؛ ناهيك عن سعي نماذج أخرى من المجتمعات إلى الانفتاح على ثقافات الشعوب وحضاراتها، وهي في حالة تقدم ملحوظ ونهوض مشهود؛ وهو ما تعبر عنه مرحلة (بيت الحكمة) زمن العباسيين على سبيل المثال .

فالترجمة - بهذا الفهم - من المداخل المهمة للارتشاف من الثقافات الناهضة والخبرات ، نتجاوز خلالها الحواجز اللغوية والخلافات المذهبية والعقدية؛ لأننا – ساعتها- نكون بصدد إقامة قنوات لنشر الثقافات، وتبادل الخبرات والأفكار، وتقزيم شساعة الحدود والمسافات .إنها بصيغة جامعة: عملية مفيدة لتحقيق ذلك التواصل المعرفي والعلمي والثقافي والفكري بين الشعوب، والاستفادة من خبرات الحضارات المتعاقبة ، دون أن ننسى أثرها في التعرف على ثقافات الشعوب الضاربة في عمق التاريخ؛ إذ ترجمة آثارهم وعلومهم ومعارفهم وآدابهم، يفسح المجال أمامنا كي نتجاوز عوائق الأزمنة والأمكنة، مقابل التعرف على بعض أسرار تقدم الشعوب وبناء الهُويات الحضارية ، بما يسمح للمترجمين من تقريب الفهوم والإنجازات وامتصاصها ومزجها، حتى تُسهم - إلى جانب عوامل أخرى- في بناء الفكر والعلوم والمعارف وتطوير القدرات الذاتية.

إن الارتشاف من معين الآخر المختلف، حتى وإن كان مشركا، أمر مطلوب، مادام ما يؤخذ عنه أو منه، مفيد ويغني في المجالات التي نعتقد أنها تستوجب هذا الضرب من النقل والاستفادة. أما الانغلاق الكلي ورفض الاستئناس بفهوم الآخرين، فضرب من الخبل الفكري، لا يثمر إلا جمود العقل، وتدهور الفكر، وضحالة الرأي، وقلة الخبرة. وقد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على تعلم الأمور النافعة من غير المسلمين، ومنها تعلم اللغات والكتابة[1]، وكل ما يمكن جعله تحت قاعدة (مالا يتم الواجب إلا به، فهو واجب مثله). وفي هذا يقول ابن قتيبة :" فإن العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذه نفعه، ولن يُزري بالحق أن تسمعه من المشركين، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين، ولا تضير الحسناء أطمارها، ولا بنات الأصداف أصدافها"[2].

ويقول الكندي في السياق ذاته:" وينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا. فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به، و لا أحد بخس بالحق ، بل كان يشرفه الحق"[3].

بهذا الفهم يتبين أن للترجمة مجموعة من الآثار الطيبة ، تتراوح بين فهم لغة القوم، ونقل العلوم والمعارف، وتوطيد العلاقات بين الشعوب بمختلف أشكالها، ناهيك عن تصحيح الفهوم والصور النمطية التي يتم تكوينها عن الآخر المختلف، لأسباب يتحكم فيها الهاجس السياسي والمذهبي أكثر من غيره، وذلك على نحو ما تتعرض له الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي والتاريخ الإسلامي، ناهيك عن الوحي بشقيه؛ فيكون للترجمة أثر بالغ ومهم في إعادة التصويب، وبناء الصورة الحقيقية عن هذا الدين وتراثه وتاريخه، وإعادة تقديمه بلغات الناس من جديد، فكشفت الترجمة -بهذا المعنى -تحريفات الكثير من الأقلام التي روجت -لسنين عديدة- صورة نمطية سيئة عن الإسلام وثقافته وتاريخه وحضارته.

وبالجملة، يمكن التأكيد على أهمية الترجمة بالنسبة لمختلف الشعوب والأمم، لأنها أحد مداخل نقل العلوم والاستئناس بالخبرات والتجارب والتعرف على طبيعة الثقافات والفنون

1- فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت (رضي الله عنه) أن يتعلم السريانية- انظر: مسند امام أحمد – 182/5. وسنن الترمذي- باب ما جاء في تعلم السريانية -كتاب الاستئذان والآداب- حديث رقم 2715.

2 - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: كتاب عيون الأخبار: - تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر- 9/1- المكتب الإسلامي- بيروت لبنان- ط1-2008.

3 رسائل الكندي الفلسفية - تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة- 103/1- دار الفكر العربي- القاهرة-مصر-1950.

والآداب؛ نقلا يمكن – إن تم إحكام آلياته ووسائله- من تطوير الفهوم وتنشيط الفكر وتثوير الذهنيات، دون أن يفوتنا -في هذا المقام- استحضار بعض مشاكل الترجمة ومخاطرها، خاصة إذا استصحبنا هنا السؤال المهم: هل الترجمة عملية نقل اللغة، أم نقل الثقافة؟

إن أهمية هذا السؤال تتجلى -على وجه الخصوص- إذا استحضرنا -في هذا المقام- اتفاق الكثيرين –قدماء ومعاصرين- على أن الترجمة لا تقف عند حدود نقل اللغة التي كُتب بها النص الأصلي، بل تتجاوز ذلك لتصل إلى فعل التفسير والتأويل والتعبير؛ ولعل هذا ما عبر عنه صاحب (لسان العرب) حينما قال:" والتَّرْجُمانُ والتُّرْجُمانُ : المفسر، وقد ترجمه وترجم عنه (...) ويقال: قد ترجم كلامه، إذا فسره بلسان آخر"[1].

على هذا الأساس، لا تقتصر الترجمة على إعادة بناء النص المترجم برؤية جديدة فحسب، وإنما تعمل على بناء ذهن القارئ كذلك، حتى يكون قادرا على استقبال النص المترجم؛ وفي هذا يقول كمال أبو ديب في مقدمة ترجمته لكتاب الاستشراق لإدوارد سعيد:" إن التمثيل إخلاص للنص الممثل، قبل أن يكون إخلاصا للغة الممثلة"[2].ويقول محمد عناني، الذي ترجم هذا الكتاب بطريقته كذلك:" إنني أؤمن بأن المترجم مُفسر، ومعنى التفسير هو تحويل الفكرة إلى لغة العصر، وهو يقترب اقترابا كبيرا، إذن، من مفهوم الشرح الذي يقدمه بازل ويلي، وإن كان يختلف عنه في أننا نطلق على الترجمة لفظة التفسير أو الاجتهاد (interpretation)، بمعنى تقديم المعنى بالصورة التي يفهمها أبناء العصر أو أبناء الجيل في هذه الأيام"[3].

إننا -هاهنا- بإزاء إحدى المشكلات التي تُصاحب ترجمة النصوص، ولعل هذا ما استوعبه الكثير من المترجمين في العهد الأموي والعباسي على وجه الخصوص، وأغلبهم من غير العرب كما نعلم، ذلك أنهم كانوا بإزاء لغة تحمل تفاصيل ثقافية ودينية وحضارية مغايرة. يقول أبو حيان التوحيدي في (المقابسات):" على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية، ومن العبرانية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية، قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق، إخلالاً لا

1- ابن منظور: لسان العرب– حرف الميم- فصل الراء المهملة.

2 - إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة- السلطة- الإنشاء - ص: 13- مؤسسة الأبحاث العربية- بيروت لبنان-ط1-1981. وينظر كذلك ما قاله محمد بنيس في كتابه: (كتاب المحو) – ص ص: 51-53- دار توبقال للنشر- الدار البيضاء- المغرب- ط1-1994.

3 - إدوارد سعيد الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق– ترجمة محمد عناني- ص:14- رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة -مصر- ط1-2006.

يخفى على أحد. ولو كانت معاني يونان تهجس في أنفس العرب مع بيانها الرائع، وتصرفها الواسع، وافتنانها المعجز، وسعتها المشهورة، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب، وكاملة بلا نقص. ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم، كان ذلك أيضا ناقعا للغليل، وناهجا للسبيل، ومبلغا إلى الحد المطلوب. وكان لابد في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها، وخفايا لا يهتدي أحد من البشر إليها"[1].

وعلى الجملة، يمكن القول: إن من الغايات الأساسية للترجمة، بالإضافة إلى تقريب النصوص من القارئ، غاية الانفتاح على الثقافات الأخرى، وغاية أخلاقية الترجمة، كما يذهب إلى ذلك أنطوان بيرمان، حيث تتواجه الغاية الأولى مع البنية العرقية لكل ثقافة، أو مع هذا النوع من النرجسية الذي يجعل من كل مجتمع يبتغي أن يكون كلا خالصا غير مشوب. وهناك في الترجمة شيء من عنف التهجين. وأما غاية أخلاقية الترجمة فهي" أن تكون انفتاحا، حوارا، تهجينا، مغادرة للمركز. إما أنها في تفاعل، أو لا شيء".[2]

إننا لا نرغب في مزيد من الحديث عن تفاصيل هذه النقطة المتصلة بإشكالية الترجمة وقضاياها ، لأن هذا الأمر يقتضي توفر مجال للبحث والدراسة يتسع لهذا النوع من الكلام المهم، ولكننا أتينا به – على قلته- كي نؤكد على نقطة في غاية الأهمية، ونحن نحاول مقاربة فعل الترجمة

---

1 - المقابسة 63- تحقيق حسن السندوبي - 1/ 258- دار سعاد الصباح-ط2-1992م.ويقول النحوي أبو سعيد السيرافي في معرض سؤاله للمنطقي متى بن يونس، كما جاء ذلك في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، حيث يسأله:" إنك تنقل عن السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية؟، ثم من هذه الى لغة أخرى عربية؟. قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني وأخلصت الحقائق. قال أبو سعيد: إذا سلمنا أن الترجمة صدقت وما كذبت، وقومت وما حرفت، ووزنت وما جزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام، ولا بأخص الخاص، ولا بأعم العام، وإن كان هذا لا يكون وليس في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني، فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه". تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - ص: 123- -مؤسسة هنداوي – وندسور - المملكة المتحدة- 2019.

3 Antoine Berman *: L'Épreuve de l'étranger : Culture et traduction dans l'Allemagne romantique*- page 16- Gallimard- Paris- france-1984.

والنص الأصلي هو:

" La traduction occupe ici une place ambiguë. D'une part, elle se plie à cette injonction appropriatrice et réductrice, elle se constitue comme l'un de ses agents. Ce qui donne des traductions ethnocentriques, ou ce que Fon peut appeler la « mauvaise » traduction. Mais d'autre part, la visée éthique du traduire s'oppose par nature à cette injonction : l'essence de la traduction est d'être ouverture, dialogue, métissage, décentrement. Elle est mise en rapport, ou elle n'est rien."

في سياق فعل المثاقفة[1]، بما هي فعل يشير إلى جدلية الأنا والآخر، الغالب والمغلوب، الممتلك للمعرفة والساعي لأخذها ،على مستوى التعايش الثقافي والحضاري أو صراعهما .والهدف محاولة إثارة سؤال مهم للغاية في هذا السياق، ونحن نناقش مسالة ترجمة علوم الآخر المختلف داخل المجال التداولي العربي الإسلامي زمن الدولتين الأموية والعباسية على وجه الخصوص، وهو: إلى أي حد كان فعل الترجمة ، داخل هذا المجال، نابعا من الحاجة إلى تطوير البناء المعرفي والعلمي للمجتمع الإسلامي؟ ذلك أن ثمة آراء فكرية تذهب إلى أن هذا الفعل كان تعبيرا عن رغبة سياسية تسربلت بوشاح معرفي وعلمي؛ ولعل هذا ما يذهب إليه الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (تكوين العقل العربي)، وهو يتحدث عن قصة حلم الخليفة المأمون بالفيلسوف أرسطو، والتي ذكرها ابن النديم -كما هو معلوم- في كتاب (الفهرست)[2].يقول الجابري:" إن العمل الذي قام به

1- إذا كانت شروط المثاقفة تتمثّل" في الاعتراف بواقع التنوّع الثقافيّ والخصوصيّات الثقافيّة والعلاقة العضويّة والحميمة بين الثّقافة والمجتمع، والمشاركة الطّوعية والتّفاعل السلمي. و تسليم كلّ طرف من أطراف الحوار بأنّه لا يمتلك الحقيقة المطلقة، و الإيمان بأنّ المعرفة نسبيّة لا تكتمل إلاّ بالتّفاعل مع الآخرين، وأنّ وعي الآخر شرط أساس للوجود في العالم، ووعي الذّات شرط أساس لإنتاج الهويّة."؛ أقول اذا كان هذا هو حال المثاقفة المطلوبة ، فإن " الترّ جمة تُعتبر إحدى أهمّ وسائل المثاقفة، لأنّها لا تقتصر على كونها عمليّة تُقرّب اللّغات فحسب، بل هي كذلك فعل ثقافيّ متطوّر ينتج عنه فعل مثاقفة طويلة الأمد على صعيد الأفراد والجماعات، ويظلّ هذا الفعل الثّقافيّ يوسّع دائرة المثاقفة في بيئته، حيث إنّ غايته من وراء ذلك استيعاب أكبر قدر ممكن من المعارف الإنسانيّة، و اكتساب خبرات الآخرين وجعلها سلاحا له في التطوّر والارتقاء والمنافسة ثمّ العطاء الحضاريّ الثري .كما أنّ الترّ جمة هي المفتاح الّذي تتفادى به الأمم الانغلاق الفكريّ من جهة، وتتخلّص من خلاله من التبعيّة المطلقة المفضِية إلى الذّ وبان في الآخر من جهة أخرى .وللحصول على ترجمة ناجحة حقّا تحُقّق فعل مثاقفة، فإنّ الازدواجية الثقافيّة أكثر أهميّة من الازدواجية اللغويّة. فالترّجمة ليست مجرّد فعل لساني، بل هي فعل ثقافيّ أيضا، أي فعل تواصل بين الثّقافات، ودائما ما تنطوي الترّجمة على كلّ من اللّغة والثّقافة، ببساطة لأنّ كلتيهما لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، فاللّغة جزء لا يتجزّأ من الثّقافة، فهي تعبرّ عن الواقع الثقافيّ وتشكّله على حدّ سواء، كما أنّ دلالات العناصر اللّسانية سواء كانت كلمات أو مقاطع أكبر من النصّ، لا يمكن أن تُفهم إلاّ ضمن السّياق الثّقافي الّذي وُظّفت فيه". (تنظر: سارة بوزرزور:" الترجمة والمثاقفة"- مجلة البدر (مجلة علمية محكمة) - م9-ع7-س2017- ص ص : 206-207.)

2- يذهب ابن النديم إلى أن الخليفة المأمون" رأى في منامه، كأن رجلا أبيض اللون، مشربا حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت من أنت؟ قال أنا أرسطوطاليس. فسررت بذلك، وقلت: أيها الحكيم أسألك؟ قال سل. قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل. قلت: ثم ماذا؟ قال ما حسن في الشرع. قلت ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور. قلت ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم. وفي رواية أخرى، قلت زدني. قال: من نصحك في الذهب، فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب، فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع" – (الفهرست - ==

المأمون، والذي جند فيه الدولة وإمكانياتها من أجل استجلاب الكتب القديمة والانفاق عليها بسخاء، لا يمكن أن يكون الدافع إليه مجرد حلم، بل إن هذا الحلم ذاته، إذا صح حصوله، إنما كان نتيجة لانشغال المأمون بذلك العمل وليس سببا له. نحن نعرف هذا جيدا، ولكن مع ذلك لابد من إعطاء "حكاية" ابن النديم ما تستحقه من اهتمام. ذلك أننا هنا أمام نص، أي أمام وثيقة تاريخية تنقل إلينا التبرير الذي كان يعطى لتلك العملية الواسعة التي تمت في عهد المأمون، عملية الترجمة، ترجمة مؤلفات أرسطو بالذات"[1].

وسواء اتفقنا مع الجابري أو اختلفنا معه، أو مع من يحملون الفكرة ذاتها، بخصوص الأسباب المؤسسة لمشروع الترجمة في الدولة الإسلامية الأولى، فإن ما يهمنا -في هذا المقام، التأكيد على أهمية ما قام به كل من له صلة بفعل الترجمة ، سواء أكان من أصحاب السلطة السياسية[2]، أو من عامة العلماء والمثقفين في المجتمع الإسلامي، بل وعامة الناس من الأثرياء على وجه الخصوص[3]، وخاصة في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي)، الذي يعتبر بحق، قرن

ص:339 - دار المعرفة -بيروت -لبنان). وينظر كذلك ما أورده ابن أبي أصبيعة في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء – شرح وتعليق: نزار رضا- ص ص: 259-260-منشورات مكتبة الحياة- بيروت -لبنان.)

[1]- محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي- ص:222- مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت- لبنان- ط 8-2002.

[2] لقد كان هناك اهتمام كبير من قبل أصحاب السلطة السياسية في الدولة العباسية على وجه الخصوص بموضوع نقل العلوم والمعارف وترجمتها، وهذا ما تشير إليه الكثير من المصادر والمراجع القيمة في هذا الباب. يقول ابن خلدون في مقدمته على سبيل المثال:" بعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها. وجاء المأمون بعد ذلك، وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله، فانبعث لهذه العلوم حرصاً، وأوفد الرسل على ملوك الروم، في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب، وعكف عليها النظار من أهل الإسلام، وحذقوا في فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها، وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول، واختصوه بالرد والقبول، لوقوف الشهرة عنده، ودونوا في ذلك الدواوين، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم". انظر بتفصيل الجزء الثاني من هذا الكتاب بتحقيق عبد الله محمد الدرويش- ص:251. دار البلخي-دمشق سوريا-ط1-2004.

[3] تذهب الكثير من المراجع إلى أن اقتناء الكتب والمراجع والمخطوطات والتنافس في ذلك، كان من أبرز ما يميز تلك الحقبة، ناهيك عن انتشار دور الكتب والنساخين والورق، بشكل مكن من التعرف على ما عند الاخر المختلف من علوم ومعارف لم يكن للعرب سابق علم بها. يقول راجعي اسماعيل: "إن المكتبات في الإسلام لم تكن موجودة لمجرد الزينة أو التباهي بها، أو لهواية جمع الكتب، فقد كانت مكانا للتثقيف والبحث والدرس، وتأليف الكتب وترجمتها. ولقد كان ظهور المكتبات الخاصة يمثل تطورا نوعيا في طريقة تفكير المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، خاصة في الدولة العباسية التي كانت مرحلة مهمة في تاريخ المكتبات عند المسلمين. فهذا النوع من المكتبات كان لظهوره دور في تشجيع العلم والعلماء، وكذلك حفظ الكتب ==

ازدهار ترجمة علوم الأوائل وفنونهم المختلفة، مما مكن من إشاعة ثقافة اقتناء الكتب[1] والمخطوطات وانتشار الأفكار والمناظرات ، وهو أمر محمود في المجتمع الذي ينوي الرقي بحضارته ونهضتها. يقول أحمد عثمان في هذا السياق: " بلغت حركة الترجمة الذروة في القرن الثاني والثالث الهجريين على أيدي حنين بن إسحاق ورفاقه وتلاميذه من المترجمين النابهين. وترتب عن هذا النجاح أن البحث العلمي في جميع الميادين انتشر في المجتمع البغدادي، وشاع أمر التكليف بوضع أعمال أصيلة باللغة العربية في العلوم والفلسفة، بل وظهرت ميادين جديدة للبحث لم تك بالضرورة نابعة أصلا من الترجمة. فصارت المناظرات أمرا مألوفا، ولم يقتصر الأمر على ما جاءت به الترجمة، وإن كانت المترجمات هي التي أشعلت جذوة الحركة الفكرية في بغداد"[2].

المحور الثالث: في بعض معالم أثر الترجمة في تطور بنية العلوم الإسلامية وتطورها

لقد توافرت العديد من الظروف الذاتية والتاريخية زمن الدولة العباسية على وجه الخصوص مكنت العلماء والمثقفين من إشاعة ثقافة المدارسات والمناظرات والسجالات الفكرية ، ناهيك عن ثقافة التأليف والتقعيد والتدوين، بشكل لم يسبق للمتقدمين داخل المجتمع

والمؤلفات النادرة من التلف والضياع؛ فقد كان الخلفاء والملوك والعلماء يتسابقون في إنشاء مكتباتهم، التي تحتوي على ما يملكون من كتب، وهذا كان له دور كبير في تشجيع الحركة العلمية في ذلك الوقت. فالمكتبات الخاصة لم تكن مكانا لحفظ الكتب فقط، بل كانت مجلسا للتعلم والمناظرة بين علماء وأدباء ذلك العصر، مما ساهم بشكل كبير في انتشار الوعي بين أفراد المجتمع، وهذا ما يظهر جليا في اهتمام مختلف طبقات المجتمع بالعلم والكتب واقتنائها. فالمكتبات الخاصة لعبت دورا كبيرا في جمع التراث الإنساني، وساهمت بشكل فعال في ازدهار المجتمع في مختلف المجالات، خاصة العلمية والثقافية منها". يراجع: " المكتبات الخاصة في الدولة العباسية ودورها العلمي والحضاري-132/656هـ/749-1257م"- مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية – المجلد السابع- العدد الرابع- ماي 2022- ص538. وانظر كذلك ما ذكرته المستشرقة الألمانية زيغريدهونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) – تحت عنوان" شغف الكتب"- ص ص: 385-392- نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي - دار الآفاق الجديدة – بيروت لبنان-ط8-1993.

[1] يُروى أن علي بن المنجم هو أول من أسس مكتبة عامة فتح أبوابها لجميع الراغبين في الاطلاع على ما فيها من علوم ومعارف، بل وعين لخدمتها موظفين كانوا يتلقون رواتبهم من ماله الخاص. ينظر أبو علي الحسن بن علي التنوخي: نشوان المحاضرة وأخبار المذاكرة- 108/8-دمشق-1348هـ- وهناك كذلك مكتبة إسحاق بن سليمان العباسي- ينظر كتاب الحيوان للجاحظ- 61/1- مطبعة السعادة مصر 1907. ومكتبة يحي بن خالد البرمكي الذي قيل فيه: إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلا وله نسخة – ينظر الحيوان للجاحظ-60/1. ومكتبة المؤرخ الواقدي (ت207هـ)، التي كانت تشتمل على صندوق مملوء بالكتب – ينظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء -218/8.

[2] المنجز العربي الإسلامي في الترجمة وحوار الحضارات من بغداد إلى طليطلة – ص:135- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة – مصر- 2013.

الإسلامي إنجازه؛ وقد أسهمت حركة الترجمة ،بشكليها الفردي والمؤسساتي ، في التمكين للعلماء المسلمين من التعرف على العديد من الجوانب العلمية والفكرية والأدبية لحضارات كانت لها قوة التمكين العلمي والفلسفي؛ وقد أدت هذه الحركية إلى الكثير من النتائج المهمة في الحضارة الإسلامية، لعل من أبرزها تمكينها الفكر الإنساني من الحفاظ على ما تبقى من الكتب القيمة، وخاصة منها تلك المتعلقة بالفلسفة الإغريقية من الزمن الهيلينستي ، فنجت من الاندثار[1] لدرجة أنه يمكن أن نقول: إن من بين عوامل معرفتنا المعاصرة بهذا التراث الفلسفي -على سبيل المثال- ترجمة السابقين للكثير من الكتب والمؤلفات ، بل وتقريبها -بالشرح والتقييم والتقويم[2]- من العقل المسلم الذي لم يكن مألوفا عنده هذا النوع من الفهم والنظر؛ ولعل هذا ما يدفعنا إلى تأكيد ما قاله هوارد-ر- تيرنر[3] في كتابه القيم(العلوم في إسلام القرون الوسطى):" نجحت الجهود التي بذلها المسلمون في الترجمة، على مدى قرنين من الزمان، في إتاحة الأعمال الكبرى لأفلاطون وأرسطو وأرخميدس وهيبوقراط وجالينوس وبطليموس وكثيرين آخرين للمفكرين المسلمين في مواقعهم من فارس وحتى إسبانيا. لم تكن الترجمات على درجة كبيرة من الدقة أو الجودة، إلا أنه بزيادة

2 نذكر على سبيل المثال لا الحصر، أن المكتبة المعاصرة لا تملك النصوص الأصلية للكثير من المؤلفات الاغريقية واليونانية، وأن ما وُجد هي الكتب المترجمة لها، نحو: كتاب الأخلاق لجالينوس، وكتاب تاريخ الفلاسفة لبورفيريوس؛ كما أننا لا نعرف كتبا لعلماء مسلمين إلا عن طريق ترجمتها للغة اللاتينية، نحو رسالة الكندي (في البرهان المنطقي)، و(الجواهر الخمسة)، ورسالة منسوبة للفارابي بعنوان (أصل العلوم).تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها القيم (شمس العرب تسطع على الغرب): " فكثير من المخطوطات، لولا العرب، لما عرفنا اليوم عنها شيئا، ككتب جالينوس في علم التشريح، ومخطوطات هيرون وفيلون وميلانوس في الميكانيكا والرياضيات وبطليموس في البصريات، ومخطوطة لإقليدس في علم التوازن ومخطوطة في ساعة الماء، وقانون العوم لأرخميدس". - مرجع سابق - ص:384.

2 وهذا ما ذهب إليه الكثير من الباحثين، حتى من داخل الفكر الغربي ذاته، حيث يقول جونثان ليونز Jonathan Lyons - على سبيل المثال لا الحصر- في كتابه (بيت الحكمة The House of Wisdom):" ولد صعود هذا التقليد العلمي والفلسفي الجديد طلبا على ترجمات أكثر وأجود من المصادر اليونانية وغير اليونانية؛ ولم يكن الأمر كما كان غالبا في التقليد الغربي، أن أدت الترجمات إلى تطور العلم والفلسفة عند العرب. ففتح مفاجئ في الرياضيات أو البصريات، مثلا، كان يعيد العرب إلى الأدبيات اليونانية، إذ يُترجمونها ويُعملون فيها النظر من جديد، وغالبا ما كانوا يصححونها أو يحسنونها. وطوال ذلك، كان لابد أيضا من ابتكار مصطلحات علمية جديدة، وهي مهمة برع فيها العرب أيما براعة. فكثير من هذه الكلمات – كالكحول والإمبيق والسيمياء (...)- هي اليوم جزء ثابت من القاموس الغربي". ينظر: بيت الحكمة: كيف أسس العرب لحضارة الغرب- ترجمة مازن جندلي - ص: 94- الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت - لبنان-ط1-2010.

3 أستاذ بجامعة تكساس في مدينة أوستن الأمريكية، والعنوان الأصلي للكتاب هو- Science in the Medieval Islam . وقد آثر المترجم أن يسميه (العلم عند المسلمين)، لأن عبارة العصور الوسطى تُحيل -في الفهم الغربي- على حقبة التخلف والظلمات عندهم من جهة، وزمن التطور الحضاري والازدهار عند المسلمين، من جهة أخرى.

خبرة المفكرين، تواترت التحسينات عليها، وأثبت اللغة العربية[1] أنها معين لا ينضب بمرونتها ومقدرتها على استيعاب المفاهيم الجديدة والعمليات والتفاصيل العلمية والفلسفية(...)حظيت علوم الطب والرياضيات والفلك بصفتها ذات فائدة منظورة مباشرة بأولوية في الأعمال المختارة للترجمة. وكان الاهتمام بالرياضة والفلك ينبع من حاجة المسلمين إلى تحديد اتجاه الصلاة والتنجيم. غير أنه في خلال قرنين من الزمان، أصبح الكنز المعرفي متاحا باللغة العربية، متضمنا المعارف الإغريقية والمساهمات الهلينية. كان هذا المخزون من الثراء الثقافي قادرا على الوفاء بالحاجيات الثقافية لتلك الحضارة الجديدة، وحتى وإن كانت هذه الحضارة تتبع أهدافا روحية وسياسية وثقافية تختلف جذريا عن أهداف الحضارة الإغريقية والرومانية الجديدة. وبحلول القرن الحادي عشر، كان الحكام المسلمون قد أرسوا قواعد مؤسسات خاصة[2] صممت للحفاظ على هذه الكنوز والتعامل معها ووضعها في خدمة المسلمين".[3]

لقد أسهم هذا الوضع الحضاري للدولة الإسلامية، وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية والانتشار الواسع للسلطة السياسية في بقاع جديدة من الأرض، في التعرف على مدونات ومؤلفات كثيرة، تتضمن فهوما ونظريات حفزت العقل المسلم على ترجمة ما عند الآخر المختلف، لدرجة أنه" وفي أقل من أربعة قرون من الفتح الإسلامي ، كان الفلاسفة وعلماء الرياضيات وعلماء النبات والأطباء والجيولوجيون والسيمائيون وزملاؤهم في العلوم الأخرى، العاملون في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية، قد أتموا عملا فذا في الكشف عن التراث الثقافي المهول الذي وصل إليهم من الحضارات السابقة، بتحليله بالتفصيل الدقيق الذي لا يكل، والاهتمام بكل كبيرة وصغيرة، وباختبار فروضه ونتائجه مرات ومرات، وقد قاموا بتطوير نتائج وفروض جديدة، ثم استمروا في

[1] تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، عن أهمية ترجمة الأعمال اليونانية وغيرها للغة العربية: "لم يكن ما أنقذه العرب من ثقافات ليحفظ في المتاحف والأقبية بعيدا عن النور والهواء. كلا، إن ما أنقدوه من الفناء قد خرجوا به من عالم النسيان والتعفن وبعثوا فيه حياة جديدة وجعلوه في متناول كل راغب عن طريق ترجمته. وقد ترجموه ليس إلى لغة جامدة غريبة عن الشعب لا يفهمها إلا الخاصة، كاللاتينية في الغرب منذ القرن الثامن الميلادي، بل ترجموه إلى لغة حية في كل مكان آنذاك، هي لغة القرآن. وكانت هذه الترجمة هي العماد الثاني الذي قامت عليه الثقافة العربية. فكل مسلم يجب عليه أن يقرأ القرآن بالعربية، وكل مسلم يتعلم ويفهم اللغة، ولكل مواطن في الإمبراطورية الإسلامية حق الأخذ بنصيب في تلك النهضة العلمية التي اتخذت شكلا رائعا في ذلك العصر، والتي لم تكن وقفا على طبقة من الشعب دون أخرى". مرجع سابق- ص:378.

3حيث شهدت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، العديد من المكتبات ومراكز التعليم والبحث والتجريب، وخاصة في المناطق التي كانت تحتضن مراكز السلطة السياسية، نحو بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة ...؛ فجمعت هذه المراكز والمؤسسات التعليمية بين تدريس العلوم الدينية وتدريس علوم الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية.

3 ترجمة فتح الله الشيخ- ص: 61- المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة- مصر- ط1-2004-

مراجعة وتحسين وحذف وإعادة تشكيل العديد منها بعد ذلك. وضع العلماء المسلمون الكثير من الأمور في نصابها وربطوا بينها بطريقة أو بأخرى، لإظهار ما يعكس توافقها مع المفاهيم الإسلامية حول وحدة الكون كما جاءت في رسالة الإسلام. وقد غطى ذلك كل المفاهيم الكبرى حول الكون المنظور، وحتى تفاصيل أدق الدقائق، بما في ذلك العمليات غير المرئية التي تجري داخل جسم الإنسان".[1]

بالبناء على ما سلف، لا يسعنا إلا أن نؤكد على أن فعل ترجمة العلوم والمعارف المختلفة داخل المجال التداولي الإسلامي، قد أحاطت به العديد من الظروف والشروط التاريخية، لعل من أبرزها الاهتمام الواسع للسلطة السياسية -في العهد العباسي على وجه الخصوص- بموضوع نقل (علوم الأوائل وفنونهم)، وترجمتها إلى العربية بما كان كافيا لإحداث مناخ ممتاز لانتعاش العقل المسلم في مختلف المجالات، بل وتطوير مناهج البحث والتفكير العلمي الرزين الذي استفادت منه الدولة الشيء الكثير[2]، ناهيك عن توفير المصادر العلمية التي استفادت منها الإنسانية فيما بعد، ومنها الحضارة الأوربية زمن بحثها عن الشروط العلمية للنهضة، والتي يعترف الكثير من أبنائها الموضوعيين، بأثر العقل المسلم في النهضة الأوربية؛ حيث لم يقف العقل المسلم على ترجمة الأعمال العلمية والفلسفية للشعوب والأمم الأخرى، بقدر ما أضاف إلى ذلك تنقيح الكثير من النظريات والتجارب العلمية، التي ظلت مسيطرة على العقل الإنساني حتى بروز النقد العلمي الإسلامي. يقول جوناتان ليونز، أحد الذين بحثوا في أثر التراث الإسلامي في بناء حضارة الغرب:"إن النظريات الأصلية الوحيدة في عمل كوبرنيكوس الضخم حول دوران الأجرام السماوية(...)الذي نشر سنة 1543، حيث كان صاحبه العالم ورجل الكنيسة على فراش الموت، تعود مباشرة إلى العمل الأسبق لعلماء عرب رفيعي المستوى لم تعجبهم تعاليم المجسطي، كتاب بطليموس المدرسي العظيم في علم الفلك. ففي السنوات الأولى للعلم العربي، قام علماء العصر العباسي بتحرير وتنقيح هذا العمل الكلاسيكي بعض الشيء. فصحح هؤلاء الفلكيون – بدعم من المأمون وبعض الخلفاء الآخرين الأوائل- حساب بطليموس طول الشهر الشمسي، وحسنوا، إلى حد بعيد، قياسه زاوية ميل مسير الشمس المحيط بالأرض(...)، وكانت مثل هذه التعديلات الأولية المهمة لكن غير الجوهرية للنظرية التي يقوم عليها العمل الأصلي، تدرج عموما في الترجمات العربية الأحدث للنص

[1] المرجع نفسه- ص: 65.

[2] يمكننا أن نستحضر في هذا السياق حاجة الدولة العباسية الجديدة إلى مجموعة من المعارف والنظريات وطرق المناظرة، لمواجهة خصومها في الداخل والخارج، الشيء الذي جعلها تتسلح بسلاح العقل والمعارف والعلوم، وخاصة الفلسفية منها.

اليوناني(...)كان من أهمية هذه العملية، أن أتاحت للتراجمة اللاتين في العصور الوسطى أن يعطوا نتائج أفضل بعملهم على الطبعات العربية المصححة للمجسطي بدل العودة إلى العمل اليوناني الأصلي لترجمته من الصفر"[1].

على سبيل الخاتمة:

لا يسعنا، بعد الذي تقدم، إلا أن نوجز الكلام في موضوع هذه الورقات في النقط الآتية:

أولا: لقد كانت وراء ظهور حركة الترجمة في المجتمع الإسلامي- زمن الأمويين والعباسيين على وجه الخصوص- جملة من العوامل الذاتية والعامة، أسهمت -في مجموعها- في تعرف العقل المسلم على العديد من النظريات والفهوم والخبرات والآراء؛ مما أسهم -بشكل ملحوظ- في تطور بنية العلوم الإسلامية وتطوير مناهج البحث في المجال التداولي العربي الإسلامي.

ثانيا: أسهمت حركة الترجمة في البناء العام للعلوم الإسلامية، مما أثر بشكل إيجابي في حركة التأليف والتقعيد، وإشاعة ثقافة المناظرات، بل وتطوير البنيات الحاضنة لهذه العلوم، وخاصة منها تلك التي دعمتها الدولة في سياق ترسيخها لسياسة البناء المادي للدولة الجديدة، وذلك بموازاة مع تطور بنية العلوم الدينية بمختلف فروعها، وهو ما تشهد عليه -بشكل واضح- حقبة ما يُسمى بعصر التدوين.

ثالثا: وإلى جانب ذلك، أسهمت الترجمة في تقريب فهوم الآخر المختلف، وحفظ الكثير منه من الضياع، ناهيك عن قيام العلماء المسلمين بتقييم الكثير من النظريات الفلسفية والعلمية وتقويمها، مما فسح المجال أمام الكثير من العلماء اللاحقين، من مؤسسي النهضة الأوربية، للاستفادة منها عن طريق ما توفر من ترجمات عربية لعلوم السابقين وتقييمها وتقويمها.

[1]- بيت الحكمة: كيف أسس العرب حضارة الغرب- مرجع سابق- ص ص:237-238.وينظر ما قالته المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) -كذلك- في كتابها القيم (شمس العرب تسطع على الغرب).

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

المراجع باللغة العربية:

✔ **كتب الحديث**

- مسند الإمام أحمد بن حنبل-حققه شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد- مؤسسة الرسالة -ط1-1995.
- سنن الترمذي- وهو الجامع الكبير-لأبي عيسى بن محمد بن عيسى بن سورة الترمذي-دار التأصيل-ط2-2016.

✔ **المراجع العربية**

- الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق: لإدوارد سعيد – ترجمة محمد عناني- رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة -مصر- ط1-2006.
- الاستشراق: المعرفة- السلطة- الإنشاء: لإدوارد سعيد – ترجمة كمال أبو ديب-مؤسسة الأبحاث العربية- بيروت لبنان-ط1-1981.
- الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - -مؤسسة هنداوي – وندسور - المملكة المتحدة- 2019.
- بيت الحكمة: كيف أسس العرب حضارة الغرب: لجوناثان ليونز. ترجمة مازن جندلي- الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت لبنان-ط1-2010.
- تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت لبنان- ط 8-2002.
- الحيوان: لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- ج1-ط2-1965.
- رسائل الكندي الفلسفية: يعقوب بن إسحاق الكندي - تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة-103/1- دار الفكر العربي- القاهرة-مصر-1950.
- شمس العرب تسطع على الغرب: لزيغريد هونكه- نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي - دار الآفاق الجديدة – بيروت لبنان-ط8-1993.
- العلوم عند المسلمين: مقدمة مصورة: لهوارد-ر- تيرنر- ترجمة فتح الله الشيخ- المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة- مصر. ط1-2004-

- الفهرست لابن النديم - دار المعرفة -بيروت –لبنان.
- كتاب عيون الأخبار: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري- تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر-ج1-المكتب الإسلامي- بيروت لبنان- ط1-2008.
- لسان العرب لابن منظور – تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخران -دار المعارف –القاهرة – مصر.
- المقابسات - لأبي حيان التوحيدي- تحقيق حسن السندوبي – ج1- دار سعاد الصباح-ط2-1992م.
- المنجز العربي الإسلامي في الترجمة وحوار الحضارات من بغداد إلى طليطلة: لأحمد عثمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة – مصر- 2013.
- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون –تحقيق: عبد الله محمد الدرويش- ج2-دار البلخي-دمشق سوريا-ط1-2004.
- نشوان المحاضرة وأخبار المذاكرة: للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي البصري، أبو علي (ت ٣٨٤هـ) –ج8-دمشق-1348هـ

✔ **المجـلات**

- مجلة إسلامية المعرفة- ع65-س17-2011.
- مجلة البدر - م9-ع7-س2017.
- مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية – المجلد السابع- العدد الرابع- ماي 2022.

المراجع باللغة اللاتينية

- L'Épreuve de l'étranger : Culture et traduction dans l'Allemagne romantique : Antoine Berman -Gallimard- Paris- France-1984